تاريخ ما بين السطور
حريق الريخستاغ

رمضان مصطفى سليمان

من الذي أحرق الرايخستاغ؟

سؤال تتردّد أصداؤه كصدى طرقٍ على بوابة التاريخ ، لا يجيب، بل يكتفي بأن يجرّنا معه إلى تلك الليلة الممعنة في الغموض ، ليلةٍ امتزج فيها الدخان بالسياسة ، والقدر بالدهاء ، والرجل الواحد بأمّةٍ كاملة كانت تبحث عن خلاص، أو تبحث عمّن يخلّصها بالقوة.

*

لم يكن صباح الثلاثين من يناير 1933 صباحاً عابراً في ذاكرة ألمانيا.

كأن برلين نفسها كانت تستيقظ تحت وطأة ارتجاج خفيف ، ارتجاج قَدَرٍ يتقدّم بخطوات محسوبة نحو قلب القارة . كانت الثّلوج تذوب ببطءٍ على الأرصفة ، وصوت الأبواق في الشوارع الكبرى يأتي متقطّعاً ، كأن المدينة تتحسّس مستقبلها ، لا تدري أهو وشيك الانفتاح أم وشيك الانغلاق.

تحت قبة الرايخستاغ ، وقف الرجل الذي سيغيّر مصير البلاد:

أدولف هتلر ، زعيم الحزب النازي ، صاحب الصوت المجلجل الذي يضرب الأذن مثل صفارة إنذار . انحنى أمام العجوز المهيب ، رئيس الجمهورية المارشال فون هندنبورغ ، فبدت الحركة كأنها مسرحية متقنة الإخراج ، لكنها كانت أيضاً تحيةً من تلميذٍ صاعد إلى معلمٍ على وشك الأفول.

من تلك اللحظة ، كان هتلر يعرف شيئاً لا يعرفه غيره : أنه لن يهنأ له بالٌ حتى يصبح الرجل الوحيد في ألمانيا ، الصوت الواحد ، القانون الواحد ، الإرادة التي لا تُردّ.

لكن ، كيف يفرض سلطته ، وحزبه لم يحصل إلا على 195 مقعداً من أصل 585؟ كيف يفرض الصوت الواحد وهناك 125 مقعداً شيوعياً يلاحقونه كظلٍّ يريد خنقه ؟

ثم جاءت الليلة التي تنتظرها الصدفة لكي تلد حدثاً لا يستطيع أحد أن يطفئه.

النار التي تتحدّث بصوتٍ أعلى من السياسة

كانت الساعة تقارب التاسعة مساءً من السابع والعشرين من فبراير.

الليل ثقيل ، بارد ، كسول .والمدينة ، كعادتها في الشتاء ، تحبس أنفاسها.

على الطريق المؤدي إلى مبنى الرايخستاغ ، كان الطالبان هانز فلوتز وأدوارد تالر يتبادلان همساتٍ عابرة عن الامتحانات المقبلة . طلاب لا يعنيهم العالم إلا بقدر ما يسمح لهم بالمضي نحو مستقبلٍ شخصي ، ضيّق ، بسيط. لكن التاريخ لا يسأل حين يختار شهوده.

فجأة سُمع صوتٌ يشبه كسر نافذة في صمت الليل ، صوتٌ حادّ ، كأنه شرارة تشقّ السكون شقّاً.

توقّف هانز :

،أدوارد ، هل سمعت؟ هذا، زجاج يتحطّم.،

رفع عينيه نحو المبنى، وكانت النوافذ تلمع تحت ضوء القمر. ثم رآه: رجلاً ، أو ظلّ رجل ، يتسلّق السور ويدخل من نافذةٍ حطّم زجاجها للتوّ.

قال أدوارد وقد اتسعت عيناه :

،يا إلهي ، لقد دخل فعلاً. من نافذة الطابق الأرضي ! أين الشرطة ؟ الشارع خالٍ تماماً !،

ركضا .كانا يركضان دون أن يدركا أنهما ، في تلك اللحظة ، أصبحا جزءاً من الحدث الأكبر الذي سيغيّر مسار دولتهم إلى الأبد.

2
داخل النار

ولنترك الطالبين للحظة ، ولننظر إلى الداخل . داخل الرايخستاغ.

حيث كان رجلٌ واحد يمشي بين المقاعد الخشبية العتيقة ، يحمل علبة صغيرة ورائحة سائلٍ سريع الاشتعال تتناثر منه كخيطٍ من القدر .

كان اسمه - أو قيل إن اسمه - مارينوس فان دير لوب : عاملٌ هولندي ، نصف كفيف ، نصف ثائر ، كلّه نار تبحث عن معنى. في رأسه كان يدور تيارٌ يختلط فيه كل شيء:

،ألمانيا يجب أن تُستيقظ ، النار تصنع المعنى ، النور يولد من الاحتراق ، يجب أن أكون الشرارة ، الشرارة التي توقظ العمال ، يسقط الظلم ، يسقط الاستغلال ،

كان يتحدّث إلى نفسه وهو يرش السائل على الستائر . كان يشعر أن التاريخ يقف معه ، يدفعه ، يبارك خطوته ، كأن اللهب الذي سيتصاعد بعد قليل هو صلاةٌ بصوتٍ أعلى.

ثم ضرب أول عود ثقاب .

توهّج الضوء في ظلمة القاعة ، وارتجفت عيناه مع أول شعلة.

،ربما يكرهونني ، ربما يعدمونني ، لكن التاريخ ، التاريخ وحده سيعرف الاجابة .،

3
عودة إلى الخارج ، لغة الدخان

لم تمر دقائق قليلة حتى انتشرت رائحة الاحتراق . وبدت خلف النوافذ نيرانٌ تتراقص كأنها أرواحٌ خرجت لتعلن بداية عصر جديد.

رجال الشرطة وصلوا أخيراً ، ثم رجال الإطفاء ، ثم الصحافة ، ثم ، الهر هتلر.

دخل هتلر وهو يضرب الأرض بخطوات عنيفة ، كأنه جاء إلى ساحة معركة ، لا إلى مبنى محترق . كانت عيناه تشعّان بغضبٍ حقيقي ، أو بغضبٍ متقَن التمثيل . لم يكن أحد يدري. لكنه هو كان يدري كل شيء.

قال وهو يشير إلى الدخان المتصاعد :

،هذه ليست مجرد جريمة ، هذه ثورة شيوعية ! بداية انقلاب ! إنهم يريدون تدمير ألمانيا !، .

كان هندنبورغ بجانبه ، وقد بدت عليه الدهشة . لكن الدهشة عند العجائز تختلط بالخوف ، والخوف هو الباب الذي يدخل منه الطاغية.

هنا، بالضبط هنا، ، ولد ، المرسوم الخاص بحماية الشعب والدولة . ، . ولد تقييد الحريات .ولد الاعتقال الجماعي للشيوعيين . ولد الرعب . وولدت معه الديكتاتورية التي كان هتلر يحلم بها.

4
صوت الطالبين، شهادتان تضيعان في الضجيج

وقف هانز وهما على بعد أمتار من بوابة المبنى ، وقد أُحيطا بجنودٍ يمسكونهما كأنهما متهمان.

سأله الضابط :

،ماذا رأيتما ؟ ،

قال هانز وهو يلهث :

،رأينا رجلاً يدخل من النافذة ، وحده .،

هزّ الضابط رأسه :

،واحد فقط ؟، .

تبادل الطالبان نظرة قلق.

،نعم ، واحد فقط.،

لكن تلك الشهادة لم يكن لها مكانٌ في الرواية الرسمية . فالنار ، حين تشتعل في مبنى ، تشعل أيضاً الأكاذيب .

والساسة يعرفون دائماً كيف يصنعون من الشرارة محرقةً فكرية تمتد لسنوات.

5
صراعٌ داخل عقل هتلر

وفي تلك الليلة نفسها ، حين هدأ كل شيء ، جلس هتلر وحده .

كان يسمع في رأسه همسات :

،لقد حدث ما نحتاج إليه ، ما لم يكن بوسع أحدٍ أن يدبّره أفضل مما دبّره القدر ، أو نحن ، .

هل دبّر النازيون الحريق ؟ هل كان الرجل الهولندي مجرّد أداة ؟ أم كان جنوناً فردياً استغله هتلر ببراعة شيطان سياسي ؟

هتلر نفسه لم يكن يهمه السؤال .فالديكتاتور لا يسأل : ، من فعل ؟ ، . بل يسأل : ، كيف أستفيد ؟،

وكانت الإجابة جاهزة في ذهنه .

،النار ولدت سلطتي، والآن سأحرق كل من يعترض.،

6
المحاكمة، المسرح الذي لا يبحث عن الحقيقة

أُحضر فان دير لوب إلى المحكمة . هزيل ، شاحب ، لكنه ثابت.

كان يتكلم عن العمال وعن الظلم وعن الحرية ، كأنه يحرق العالم بالكلمات بعدما أحرق المبنى بالنار.

سأله القاضي :

،هل كنت وحدك ؟ ،

ابتسم ابتسامة غريبة ، ابتسامة رجلٍ يظن نفسه بطلاً:

،نعم، وحدي . النار تكفيني وحدي .،

لكن أحداً لم يقتنع . لا القضاة ، ولا الصحافة ، ولا الناس ، ولا التاريخ . كلٌّ كان يحمل روايته ، وكل روايةٍ كانت تبحث عن شرارة لتشتعل.

أُعدم الرجل لاحقاً . لكن النار التي أشعلها لم تخمد أبداً.

7
النهاية بابٌ متروكٌ عمداً

من إذن ؟ من الذي أحرق الرايخستاغ ؟ رجلٌ واحد ؟ حزبٌ بأكمله ؟ مؤامرة مدبّرة ؟

صدفةٌ حظي بها طاغية ؟

أم شرارة من لا وعي ألمانيا آنذاك ، ألمانيا التي كانت تحترق من الداخل أصلاً ؟

التاريخ لا يقدّم إجابة نهائية .يرفض .يكتفي بأن يترك السؤال معلقاً، مثل دخانٍ لم يتبدّد رغم مرور العقود.

لكن ما نعرفه يقيناً هو شيء واحد : أن تلك النار لم تكن ناراً على الخشب ، بل ناراً على الحرية .

وأن من يشعل الشرارة قد لا يكون هو من يتحكّم في اللهيب . أحياناً يكفي رجلٌ ضائع ، أو حزبٌ طامع ، أو أمةٌ خائفة ، لكي يتحوّل ليلٌ واحد إلى عصرٍ كامل من الظلال.

وهكذا يبقى السؤال مفتوحاً ، يتمتم به التاريخ كأنّه يعيد قراءة نفسه:

» من الذي أحرق الرايخستاغ ؟ «

وربما ، ربما الإجابة الأعمق ليست اسماً ، بل درساً :

أن النار ، حين تدخل السياسة ، لا ينجو منها أحد.

أصابع الضوء فوق رماد برلين

كانت الساعة معلّقة على معصم هانز مثل شاهدٍ لا يرحم ، عقرباها يطاردان الحقيقة بينما يداه ترتجفان ببرودةٍ لا يُفسّرها طقس أو خوف واحد فقط ، بل خليط من كلّ شيء. وحينما عاد بالشرطي ، كانت التاسعة والدقيقة العاشرة بالتمام ، وكأن المدينة نفسها قد شدّت أنفاسها لتنتظر تلك اللحظة.

وقف تالر أمام الشرطي ، عيناه متسعتان كأنهما نافذتان على جحيمٍ قديم . وقال بصوتٍ يختلط فيه الصدق بالرجاء ، والرهبة بالدهشة:

أجل ، صدّقنا أيها الشرطي . لقد سمعتُ صوت الزجاج يتكسر ، ثم رأينا شخصًا ما يتسلّق النافذة ويدخل إلى المجلس.

وفي تلك اللحظة ، ارتجّ المكان إثر دفقٍ من الدخان المتصاعد ، كأن الأرض تتنفس من رئتها السوداء ، وارتفعت ألسنة النار بألوانٍ كانت أشبه برقصةٍ جنائزية.

صرخ الشرطي :

المجلس يحترق!

وأشار تالر ، وهو يرتد خطوةً إلى الخلف ، وقد أشرقت عيناه هلعًا بعتمة النار :

ها هو الشخص الذي رأيناه يدخل من النافذة ، ألا ترى شبحه هناك؟

رفع الشرطي بصره ، فكان هناك بالفعل ظلّ غريب ، ليس جسدًا تمامًا ، ولا ضوءًا تمامًا ، بل مزيج من الاثنين ، أشبه بصفحةٍ من تاريخٍ قديمٍ أعيد تمزيقها وإلصاقها بطريقةٍ خاطئة. أجل، أراه. على بُعد ، وسط النيران.

قال تالر وهو يضغط على كتف الشرطي:

إذن فأطلق النار عليه أيها الرجل! أطلق بحق السماء!

وانضم إليهما هانز بصوتٍ متهدّج كأنه خرج من صدرٍ محاصرٍ بقبضةٍ من جليد:

أطلق النار أيها الشرطي، ماذا تنتظر؟ ألا تراه يشعل النار في كلّ مكان؟

لم يفكر الشرطي طويلًا . حمل المسدس وأطلق رصاصة واحدة . رصاصة قصيرة العمر ، طويلة الأثر ، شقّت ألسنة النار ، واخترقت الدخان ، وارتدت أصداؤها بين جدران المجلس المحتضر.

اختفى الشبح . لم يعد أحد يراه . ربما أصابته الرصاصة ، وربما كانت له مهمة أخرى ، أو لعلّ النار كانت تحجبه ، أو تبتلعه. لم يعرف أحد ، ولن يعرفوا بسهولة.

تنفّس الشرطي بعمق وقال:

لا بد أن أخطر إدارة الشرطة في برلين.

قال تالر بسرعة:

وإدارة الإطفاء أولًا أيها الشرطي !

+

ما الذي رأيته حقًا ؟

كان هذا السؤال يدور في رأس هانز كريشةٍ علقت بين دوامات الهواء والدخان.

هل كان شبحًا ؟ أم رجلًا ؟ أم صورة من الصور التي تُعيدها الذاكرة حين تخشى المواجهة ؟

كانت ذاكرته تمتد إلى الوراء ، إلى سنواتٍ كانت برلين فيها مدينةً تُدار بالهواء الثقيل ، لا يعلو فيها سوى أصوات الأحذية العسكرية وقرقعة الأوامر. كان هانز صغيرًا آنذاك ، يرى النيران تلتهم الكتب في الساحات، ويرى وجوهًا تُقتلع من التاريخ لأن أحدهم قرّر أنها لم تعد مناسبة للمشهد.

النار، النار دائمًا كانت تُشبه الحقيقة:

تبدأ بشرارة، ثم تكبر ، ثم تلتهم كلّ شيء، حتى من أشعلها.

هل الشبح الذي شاهدوه ، امتداد لتلك النيران القديمة ؟ أم هو رجلٌ مثله ، ولكنه وصل إلى نقطةٍ في الحياة كسرته وجعلته يحرق ما تبقى من معنى؟

+

وقف الرجال الثلاثة على بُعد أمتار من اللهب . كان الضوء الأحمر يرتسم على وجوههم مثل قناعٍ من خوفٍ متوارث ، خوفٍ لا يخص النار وحدها ، بل يخصّ كل ما لم يُقل منذ زمن.

قال الشرطي وهو يحاول أن يسيطر على ارتجاف صوته:

أخبراني مرة أخرى ، ماذا رأيتما ؟ التفاصيل مهمة.

تبادل هانز وتالر نظرة قصيرة ، نظرة فيها اتفاق قديم بني في اللحظة نفسها.

قال تالر :

رأينا رجلًا ، كان يتسلق النافذة كما لو أنه يعرف المكان جيدًا. لم يكن لصًا ، كان يتحرك وكأنه يعود إلى شيءٍ يخصّه.

سأله الشرطي:

وهل تعرّف عليه أحد منكما ؟ ملامح ؟ هيئة ؟ أي شيء ؟

هز هانز رأسه وقال:

كان ظلًا أكثر منه رجلًا. كأنه ، يعود من زمنٍ آخر.

قطّب الشرطي جبينه :

تتحدث وكأنه روح أو شبح .

تنفس هانز ببطء :

أحيانًا ، الماضي نفسه يبدو كشبح ، يعيش بيننا ، لا يُرى إلا حين يحترق شيء .

التفت إليه الشرطي وقال بنبرةٍ تحمل شيئًا من الشك :

هذه جريمة حقيقية ، يا هانز .

لم يرد هانز ، لكنه ابتسم ابتسامة صغيرة ، كأن الشرطي لم يفهم شيئًا.

+

تألقت ألسنة النار كأنها تكتب تاريخًا جديدًا فوق رمادٍ قديم . كان المجلس المحترق مبنى إداريًا عتيقًا ، شهد اجتماعات وحوارات وصراعات امتدت لعقود . هنا وُلِدت قرارات ، وهنا ماتت أخرى. وفي هذا المكان تحديدًا ، اختفت شخصياتٌ كانت تتمشى في دهاليز السياسة ، وعادت فقط في قصاصات الصحف القديمة.

قال تالر وهو يحدق في النيران :

هل تظن، أنه قد عاد ليسترجع شيئًا ضاع منه هنا؟

أجاب الشرطي :

اللصوص لا يعودون ، إنهم يهربون.

قال هانز بهدوء:

والمظلومون ، يعودون.

التفت إليه الرجلان .كانت في صوته نبرةٌ لم يسمعاها من قبل، نبرة رجلٍ يرى شيئًا لا يُرى.

+

في ذهن الشرطي دوّى سؤالٌ آخر:

هل أطلقتُ النار على رجل ، أم على وهم؟

لطالما كان يخشى تلك اللحظة ، اللحظة التي يصبح فيها قرارٌ اتخذه في ثانية ، ثقلًا يلاحقه طوال حياته .

ماذا لو كان ذلك الرجل بريئًا ؟ ماذا لو كان محتاجًا ، أو مختبئًا، أو عائدًا لاسترجاع أوراق ، أو حقيبة، أو ذكرى ؟

ثم عاد الشرطي إلى واقعه :

الرصاصة خرجت . الشبح اختفى.

النار تتصاعد . والمدينة تنتظر تقريرًا رسميًا لا يشبه كلّ هذه الأسئلة المعلقة في الهواء.

+

ارتفعت أصوات سيارات الإطفاء كصرخةٍ معدنية شقت ليل برلين .ركض رجال بلباسٍ رماديّ ، وبدأوا في رشّ الماء مثل من يسكب الذاكرة فوق الماضي ليخمده ، أو يعيده إلى النوم مؤقتًا.

لكن النار ، كانت ترفض النوم . كانت تتلوّى، وتسعل، وتصرخ، كأنها تريد أن تقول شيئًا طال كتمانه.

وقف هانز وتالر والشرطي يشاهدون المشهد.

وبينما كانت خراطيم المياه ترسم أقواسًا في الهواء ، كان ظلّ ذلك الشبح يعود فجأة في أذهانهم الثلاثة.

+

هانز:

إنها ليست جريمة فقط ، إنها قصة. وشخصٌ ما عاد ليُكملها. النار ليست عدوًا هنا، بل شاهدًا.

تالر:

ربما كنت مخطئًا ، ربما ليس شبحًا ، ربما رجلٌ أعرفه. وجهٌ رأيته قبل سنوات ، في محكمة ، أو في مظاهرة ، أو في جنازة. هل يمكن أن تعود الوجوه بعد وفاتها؟

الشرطي:

هل سأكتب في تقريري : أطلقت النار على شبح سيضحكون، أو سيشكّون ، أو سيعيدون التحقيق معي .

لكن ما رأيته لا يمكن إنكاره، ولا يمكن إثباته.

+

عندما خمدت النيران أخيرًا، لم يتبقَّ إلا الجدران السوداء ، ورائحة رمادٍ مُثقلٍ بالذكريات .

دخَل الشرطي أولًا ، تبعه رجلان من الإطفاء.

وقفوا في قاعة المجلس المحترق ، وأضواء المصابيح تتحرك فوق الركام.

قال أحد رجال الإطفاء :

لا توجد جثة هنا.

تجمّد الشرطي .سأل بصوتٍ خافت :

»ولا أثر لطلقة ؟

هز رجل الإطفاء رأسه:

كأنك أطلقت النار على الفراغ .

+

خرج هانز من المبنى ، ووقف تحت سماءٍ تمطر رمادًا ببطء. رفع يده وحدّق في الساعة ، كانت تشير إلى العاشرة تمامًا.

ساعة واحدة فقط، تكفي ليولد شبح، وتحترق ذاكرة، وتنقلب مدينة.

قال تالر وهو يقف بجانبه :

هانز، هل تظن أنه سيعود ؟

ابتسم هانز ابتسامة يُخفي بها ارتجافًا داخليًا ، وقال :

الشبح يعود دائمًا ، عندما لا تُروى القصة كاملة.

ثم مشى .ومعه مشى الرماد .ومعه مشت أسئلةٌ لم تجد إجابة بعد.

أما الشرطي، فظل واقفًا أمام الباب المحترق ، ينظر إلى مكان اختفى فيه الشبح ، ويتساءل :

هل أصبت الرجل ؟ أم أنني أطلقت النار على جزءٍ من تاريخ المدينة ؟ ومن يضمن ، ألا يظهر ذلك الظلّ من جديد ؟

وبينما كان الليل يغلق ستارته على برلين ، شعرت المدينة كلها بشيء يتنفس في عتمتها ، شيءٍ لا هو رجل ، ولا هو نار ، شيء ينتظر لحظة أخرى ليظهر.

النار فوق قبة الرايخستاغ

كانت الساعة التاسعة واثنتين وعشرين دقيقة ، لا أكثر ولا أقل ، حين قررت النار أن تتكلم.

في برلين ، المدينة التي كانت تتظاهر بالهدوء كمن يخفي خنجراً خلف ظهره ، بدأ الميدان يضجّ بخطى المطافئ وصفارات الشرطة ، كأن الزمن نفسه انكسر فجأة واندفع في اتجاه واحد : نحو القبة التي كانت تمثل ، ظاهرياً ، عقل الأمة الألمانية، الرايخستاغ.

ألسنة اللهب لم تكن مجرد نار. كانت خطاباً سياسياً ، اعترافاً غامضاً ، صرخة فلسفية خرجت من جدران البرلمان. حاول رجال الشرطة اقتحام أبواب قاعة المناقشات ، لكن النار ردّتهم بعنف ، ودفعت إليهم بما يشبه الهذيان المتجسد :

فتى شبه عارٍ ، وجهه ملوث بالسخام ، عيناه تتقدان أكثر من اللهب من حوله.

مارينوس فان دير لوبه. الاسم الذي سيختصره التاريخ لاحقاً في جملة واحدة : حارق الرايخستاغ.

لكن التاريخ، كعادته، كاذب بارع.

+

لماذا لا يصدقون؟

كان مارينوس يصرخ ، لا إلى الشرطة ، بل إلى الهواء ، إلى الجدران التي تحترق ، إلى فكرة العدالة نفسها .

أنا فعلتُها ، أنا وحدي ، لم يعلّمني أحد كيف تُشعل النار ، النار تعرفني منذ الطفولة.

كان جسده يرتجف ، ليس من البرد، بل من فائض الوعي. رأى في النار خلاصاً ، تطهيراً ، فعلاً فردياً في عالم فقد معناه. لم يكن شيوعياً كما قالوا ، ولم يكن رسولاً نازياً كما اتُّهم لاحقاً . كان شاباً بلا وطن داخلي ، يبحث عن معنى عبر الفعل ، أي فعل.

إذا لم أحرق هذا الرمز ، سيحرقوننا واحداً واحداً ، قالها في داخله ، لا كقناعة سياسية ، بل كحدس وجودي.

+

الإجابة، كما قيل لاحقاً ، تتلون حسب لون صاحبها.

جوزيف جوبلز، وزير الدعاية الهتلرية ، كان صوته حاداً كحد السكين :

إنها مؤامرة الأحزاب المعارضة ، وعلى رأسها الحزب الشيوعي . هذه النار ليست سوى إعلان حرب على الأمة .

في الجهة المقابلة ، كان زعيم الحزب الشيوعي يضرب الطاولة بقبضته :

بل هتلر نفسه هو من أمر بإحراق الرايخستاغ. أراد ذريعة ، فصنع ناراً. أراد عدواً، فاختلقنا .

وبين الصوتين ، ظل صوت مارينوس معلقاً في الفراغ: لماذا لا تصدقونني ؟ أنا وحدي ، كنت وحدي .

لكن من يصدق فرداً ، حين تكون الجماهير بحاجة إلى أسطورة؟

+

كل شيء كان جائزاً .الظروف مريبة، التفاصيل زلقة ، والصدف أكثر ذكاءً من البشر.

نوقش الحادث أمام القضاء ، جلسات طويلة ، محاضر، شهود ، أدلة ، وأدلة مضادة.

لكن الحقيقة لم تكن جالسة في قاعة المحكمة ؛ كانت تتنقل بين العقول ، تتبدل مع كل خطاب.

ومن بين أكثر الأسئلة إثارة للقلق: **كيف علم هتلر بالحادث؟**

+

كان هتلر يقضي السهرة في منزل جوبلز.

الضحكات خافتة ، الحديث يدور حول المستقبل ، حول ألمانيا التي ،ستنهض،.

ثم دق جرس الهاتف.

رفع جوبلز السماعة بتثاقل:

ألو؟

دكتور جوبلز، أنا هانز ستانفل.

ماذا تريد يا عزيزي هانز ؟ بالله لا تقل إنك تتصل لتحكي لي نكتة جديدة.

ليس هذا وقت النكات ، يا دكتور . من نافذتي أرى النار مشتعلة في الرايخستاغ، إنه يحترق.

ضحك جوبلز ، ضحكة رجل يعرف قوة الكلمة:

أيها الرجل ، لن تنطلي عليّ هذه اللعبة . لن أغادر مكاني ، لتقول للناس إنك خدعت جوبلز!

لست أمزح . هتلر عندك الآن ، أليس كذلك ؟ بحق السماء تحركا قبل أن تأتي النار على المجلس كله!

لكن جوبلز ، المعتاد على ،النكات العملية ، أنهى المكالمة :

ليلة طيبة يا هانز.

عاد إلى هتلر.

إنه يحاول خداعك ، يزعم أن الرايخستاغ يحترق.

تجمد وجه هتلر :

ماذا؟ الرايخستاغ يحترق؟

ينكت، يا هر هتلر.

ينكت في أمر كهذا ؟، هو يسكن مقابل الرايخستاغ.

ثم صمت لحظة ، وأضاف :

لو كان هناك حريق ، لكان غورينغ رآه. لماذا لم يتصل غورينغ؟

وكأن السؤال استدعى الإجابة ، دق الهاتف مرة أخرى.

هذه المرة ، كان الصوت مختلفاً .

جوبلز ، الرايخستاغ يحترق. أبلغ هتلر فوراً. يجب أن يحضر الآن.

هذه هي رواية جوبلز.

لكن التاريخ لا يكتفي بالروايات ، بل يحفر تحتها.

لماذا لم يتصل غورينغ مباشرة بهتلر ؟

لماذا تأخر الاتصال حتى التهمت النار المبنى تقريباً ؟ هل كان الصمت صدفة ، أم انتظاراً محسوباً ؟

في تلك الليلة ، لم يكن الرايخستاغ وحده يحترق ، كانت الجمهورية الألمانية نفسها تحترق ببطء.

+

في الخارج، كان مارينوس يُسحب إلى سيارة الشرطة. في الداخل، كانت السلطة تُعيد ترتيب أوراقها.

قال أحد الضباط :

هذا الفتى مجرد أداة

رد آخر:

أو ربما كبش فداء.

أما مارينوس، فكان يحدق في يديه :

هل يعقل أن فعلي الصغير هذا أشعل كل هذا؟

في مكان آخر ، قال هتلر بصوت خافت لكنه حاسم :
هذه علامة

لم يقل من الله أو من التاريخ ، لكنه كان يعلم أن الجماهير تحب العلامات.

+

الفلسفة المرة: من يشعل من؟

هل يشعل الفرد النار ، أم أن النار كانت تبحث عن فرد؟

هل كان مارينوس فاعلاً ، أم مجرد فكرة جسّدتها الظروف ؟ التاريخ لا يجيب ، بل يدوّن النتائج.

بعد الحريق ، عُلّقت الحريات .حُلّت الأحزاب . وصعدت السلطة وحدها ، بلا معارضة .

أما مارينوس، فاختفى صوته تدريجياً ،حتى صار هامشاً في كتاب ، وحاشية في محاكمة ، وسؤالاً بلا جواب.

+

ما الذي احترق حقاً؟

في تلك الليلة ، احترق مبنى .

لكن ما الذي احترق فعلاً ؟ هل احترق البرلمان ؟ أم احترقت الفكرة ؟ أم احترقت الحقيقة نفسها ، تاركة لنا رماد الروايات ؟

النار انطفأت ، لكن ظلّها بقي معلقاً فوق التاريخ ، يهمس لكل من يقرأ:

احذر ، فبعض الحرائق لا تُشعل لتدمير المباني ، بل لإعادة تشكيل العقول.

رمادٌ يتكلّم ـــ اعترافات في ممرّات الليل

لم يكن الليل في برلين تلك الليلة ليلًا عاديًا ؛ كان ليلًا يتثاءب من فرط التاريخ ، كأن الساعات نفسها كانت تُستجوب قبل البشر. من التاسعة والنصف حتى الثالثة صباحًا ، تمدّد الزمن في مكتب النائب العام ، لا كخطّ مستقيم ، بل كدوّامةٍ سوداء ، تبتلع الأسئلة وتعيدها مشتعلة.

جلس الفتى . نحيل الجسد ، واسع العينين ، كأن في حدقتيهما مدينةً كاملة تحترق ثم تُعاد بناؤها كل ثانية . لم يرتجف . كان صوته ، حين خرج ، أشبه بجمرةٍ مغطّاة بالرماد.

قال في هدوءٍ أثار ريبة الهدوء نفسه :

أنا الذي أحرقت الرايخستاغ وحدي ، دون أي معاونة من أحد ، ولا أنتمي إلى أي حزب من الأحزاب الممثّلة في المجلس.

ساد الصمت. الصمت هنا ليس فراغًا ، بل كيانًا ثالثًا ، يشارك في التحقيق ، يحدّق في الجميع ، ويكتب ملاحظاته على الجدران.

قال المحقق، وهو يقلّب الورق كمن يقلب ذاكرة غيره :

اذكر لنا بالتفصيل ، كيف دبّرت الجريمة ؟ وكيف نفّذتها ؟

ابتسم الفتى ابتسامةً بالكاد تُرى. لم تكن سخرية ، بل شقًّا صغيرًا في جدار السؤال .

إنك، يا سيدي، لم تسألني أولًا عن الدافع.

رفع المحقق رأسه ببطء.

حسنًا ، ما هو الدافع لإحراق المجلس؟

وهنا، لم يعد الفتى في الغرفة.

+

هتلر ، الاسم يمرّ في رأسي كقطارٍ بلا نوافذ. أسمعه ولا أراه . أرى بدلًا منه وجوه الناس في الشوارع ، أسمع خطبًا تصرخ أكثر مما تقول ، أرى أعلامًا تُرفع كأنها ستغطي السماء، وأشعر - لا أفهم - أن شيئًا ثقيلًا يهبط على صدورنا جميعًا . الدولة تتحوّل إلى قبضة. والقبضة لا تفهم الحوار.

+

قال ، وقد عاد صوته من مكانٍ أعمق :

بغضبي الشديد من أسلوب النازي في الحكم . هذا الأسلوب الذي سينتهي بهتلر ورفاقه إلى السيطرة الكاملة على مقدّرات البلاد ، إلى حكمٍ دكتاتوريٍّ مطلق . أردتُ أن يحترق المجلس ، أن أطلق صيحة احتجاجٍ فردية ، علّ صداها يتردّد في ألمانيا كلّها.

تحرّك أحد المحققين في مقعده .

ومن حرّضك على هذا العمل ؟

رفع الفتى عينيه ، كأن السؤال طريف .

ضميري.

ومن غير ضميرك؟

لا أحد.

كلمة ، لا أحد ، سقطت في الغرفة كحجرٍ في بئرٍ لا قاع له. دوّنوا . دقّقوا . تبادلوا نظراتٍ تعرف كيف تخفي شكّها خلف الحياد.

حسنًا، قال المحقق الأول ، كيف دبّرت الجريمة ونفّذتها؟

حطّمت نافذة الطابق الأرضي بقطعةٍ من الطوب ، ثم دخلت إلى القاعة الكبرى.

وكيف تسلّقت السور ، ومعك أدوات الحرق ؟

لم يكن معي غير ثلاث زجاجاتٍ من النفط ، علّقتها برقبتي.

وماذا بعد أن دخلت قاعة المجلس ؟

تنفّس الفتى بعمق.

وكأن رائحة النفط عادت فجأة.

+

الستائر، كم بدت ثقيلة، كأنها تاريخٌ معلّق . المقاعد الخشبية صفوفٌ من الصمت الرسمي . الأثاث ، كلّه ، بدا لي كأشياء فقدت معناها.

سكبت النفط لا كمن يسكب سائلًا ، بل كمن يوزّع أسئلة. هل تحترق الأفكار ؟ هل للنار رأي سياسي ؟ أشعلت الكبريت ، لا لأدفئ نفسي ، بل لأرى ، لأرى فقط.

بلّلتُ الستائر والمقاعد والأثاث في كلّ ركنٍ من المجلس بالنفط ، ثم أشعلت النار بالكبريت.

قال المحقق ، بنبرةٍ أكثر برودًا:

والآن ، اذكر لنا ما قلته مرةً أخرى ، وهذه المرّة بالتوقيت الصحيح.

أعاد.

دقيقةً بدقيقة . خطوةً بخطوة . لم يتلعثم . لم يتناقض .

كأن القصة محفوظة في جسده لا في ذاكرته.

خرج المحققون ، ومعهم ساعات ضبط الوقت ، إلى أنقاض الرايخستاغ.

كان المبنى ، في ضوء الفجر ، أشبه بجثةٍ رسمية .طابقوا الأقوال بالأفعال . والتوقيت بالتوقيت.

وعادوا. عادوا لا ليسألوا عن ، كيف ، بل عن ، لماذا ،.

قال أحدهم ، وقد بدا عليه تعبٌ خفي :

نريد الحقيقة كاملة.

قال الفتى ، بنفس الهدوء الذي صار يربكهم :

لقد قلتُ لكم. ولا تأملوا أن أكذب في هذا أبدًا. لستُ من الحزب النازي ، ولذلك لم أحرق الرايخستاغ بأوامر من هتلر أو غورينغ. ولستُ شيوعيًا لأحرقه بأمرٍ من جورجي ديميتروف. أحرقته احتجاجًا على الخطر النازي.

ساد الصمت مجددًا .لكن هذه المرّة، كان الصمت أثقل.

هل يفهمون ؟ أم أنهم لا يريدون أن يفهموا ؟

التاريخ لا يحبّ الأفراد ، يحبّ الجموع ، يحبّ الشعارات الكبيرة.

أما أنا ، فأنا مجرد جسدٍ قال ،لا، في وقتٍ كان فيه ،لا، جريمة.

قال محققٌ آخر ، بصوتٍ منخفض :

هل كنتَ تتوقّع ما سيحدث بعد ذلك ؟

تردّد الفتى . ليس لأن الجواب صعب ، بل لأن المستقبل ، حينها ، كان بلا ملامح.

توقّعتُ ، أن يسمع أحد . أن يفهم أحد . أن لا تُستغلّ النار لتبرير نارٍ أكبر.

تبادلوا نظراتٍ سريعة.

كانوا يعرفون – ربما -أن النار لا تسأل عن النوايا ، وأن السلطة بارعة في تحويل الاحتجاج إلى ذريعة.

في الممرّات ، كان التاريخ يتحرّك بصمت . القوانين الاستثنائية كانت تتهيّأ .والقبضة كانت تُغلق أكثر.

نظر الفتى إلى النافذة الصغيرة في غرفة التحقيق . السماء بدأت تشقشق . فجرٌ جديد، لكن لأيّ بلد ؟

+

هل أخطأت ؟ أم أن الخطأ هو أن ننتظر دائمًا أن يتغيّر الطغيان من تلقاء نفسه ؟

أنا لم أحرق مبنى .أنا أشعلت سؤالًا. والأسئلة ، لا تموت ، حتى لو أُعدم أصحابها.

+

نهض أحد المحققين ، وقال بلهجةٍ رسمية :

سيتم استكمال الإجراءات.

لم يُجب الفتى . كان مشغولًا بالاستماع إلى شيءٍ آخر ، ربما إلى خطوات التاريخ وهو يبتعد ، أو يقترب.

تركوه وحده.

ومع الفجر ، بقي في الغرفة دخانٌ خفيف ، لا يُرى ، لكن يمكن الشعور به.

خارج الجدران ، كانت ألمانيا تقف على عتبة تحوّلٍ هائل.

وبين الرماد والبيانات الرسمية ،ظلّ السؤال معلّقًا:

هل كانت النار فعل جنونٍ فردي ؟ أم كانت آخر لغةٍ متاحة لمن لم يُسمح له بالكلام؟

لم يُغلق الملف بعد . ولم تُطفأ النار كلّها.

رماد الحريق بدل التاريخ

لم تكن هناك ساعةٌ واحدة، من ساعات الأسابيع التي سبقت الحريق، إلا ومرّت كعينٍ مفتوحة فوق حياة **فان دير لومه** .

عين الشرطة ، عين الدولة ، عين الخوف .

كان الزمن نفسه محققًا إضافيًا ، يفتش خطواته ، أنفاسه ، حتى صمته.

قال كبير المحققين بصوتٍ متعب ، وهو يقلب الأوراق كما لو كان يقلب أعمارًا لا ملفات :

تحرياتنا متطابقة يا سيدي ، لا ثغرة ، لا شاهد خفي ، لا يد أخرى.

سكت قليلًا ، ثم أضاف كمن يخشى الحقيقة :

حتى الآن ، فان دير لومه هو من أشعل النار وحده.

لكن الحقيقة ، كما أدركت لاحقًا ، لا تُولد كاملة . إنها تتشكل في الفراغ بين الكلمات.

+

كنتُ فان دير لومه ، أو لعلني كنتُ مجرد ظلٍّ لرجلٍ يتنقل بين المدن الألمانية كما تتنقل الشكوك في صدر وطنٍ خائف.

ثمانية أسابيع من التشرد . ثمانية أسابيع من النوم في محطات القطار ، من الخبز اليابس ، من الصحف التي تحمل صور رجلٍ بشاربٍ حاد ونظرة لا تعرف الرحمة.

إلى أين تمضي يا فان ؟ كنتُ أسأل نفسي ، فلا يجيبني إلا صدى الخطوات فوق الأرصفة الباردة.

أفكر في ألمانيا ، أفكر في البلاد إن وقعت في قبضة ديكتاتورية الحزب النازي .

هل ستظل البلاد بلادًا ؟ أم ستتحول إلى فكرة واحدة ، لون واحد ، صوت واحد ؟

كان الخوف يتسلل إلى رأسي كما يتسلل الدخان قبل الحريق.

+

يوم الثلاثين من يناير .

الهواء كان مشحونًا بما لا يُرى . وقفتُ عند حائط الرايخستاغ ، لا مواطنًا ولا متظاهرًا ، مجرد جسد يستمع.

مكبرات الصوت تنقل مراسم نقل السلطة إلى هتلر .الكلمات تسقط كالمطارق : النهضة ، النظام ، المجد.

كنتُ أبحث بعينيّ عن وجهٍ يشبهني ، عن نازيٍّ يصرخ ،عن شيوعيٍّ يحتج ، عن أي شيء يؤكد أنني لست وحدي.

لكنني لم أقابل أحدًا. لا نازي ، ولا شيوعي . كأن الشعب بأكمله قرر أن يحبس أنفاسه.

في داخلي، كان الحوار أكثر صخبًا :

إن صمتُّ الآن ، فمتى أتكلم ؟ وإن تكلمتُ ، هل يسمعني أحد ؟ وهل النار لغة ؟

+

قال المحقق ، وهو يرفع رأسه عن الأوراق:

لم تلتقِ أي عضو في الحزب النازي ؟

لا.

ولا أي شيوعي ؟

ولا حتى نفسي،

نظر إليّ طويلًا ، كأنه يحاول أن يرى خلف وجهي. قال بصوت أقل حدة :

هتلر يصرخ بأن الأحزاب المناوئة اشترتك.

ضحكتُ. ضحكة قصيرة، مكسورة .

لو كانوا قد اشتروني ، لدفعتُ الثمن من عقلي ، لا من حياتي.

تدخل كبير المحققين ، وكأنه يريد إنقاذ الحوار من السقوط في الهاوية :

لا دليل لدينا، يا ولدي.

ثم تنهد:

لكن المؤسف، أن هتلر يستخدم هذه الورقة ببراعة عجيبة.

كان المحقق صادقًا.

لعب هتلر الورقة كما يلعب لاعب شطرنج لا يهمه عدد القطع التي يحرقها ، ما دام الملك محاصرًا.

صار الشعار : **الموت لكل من هو غير نازي.**

لم يكن الشعار مجرد كلمات. كان تصريحًا تاريخيًا بإلغاء التعدد ، بإعدام الاحتمالات.

حصل هتلر من رئيس الجمهورية هندنبرج على توقيع المرسوم .مرسوم حماية الشعب والدولة.

اسم جميل ، كقناعٍ ذهبي يخفي وجه السكين.

قرأوا علينا بنوده، بندًا بندًا ، وكأنهم يعلنون وفاة الحريات:

نقيّد الحرية الشخصية .

نقيّد حرية الرأي .

نقيّد الصحافة .

نقيّد الاجتماع .

نقيّد الجمعيات .

نراقب الرسائل .

نفتح البيوت دون إذن.

نصادر الأملاك بلا سؤال.

كنتُ أسمع الكلمات ، وأشعر أن النار التي أشعلتها لم تكن سوى شرارة أمام هذا الحريق القانوني العظيم.

+

في زنزانتي، كنتُ أفكر:

هل أحرقتُ الرايخستاغ ؟ أم أن الرايخستاغ كان ينتظر من يحرقه ؟ هل كنتُ فاعلًا، أم أداة ؟

التاريخ يحب البساطة . يحب أن يختصر المآسي في اسم واحد.

وفان دير لومه كان اسمًا مناسبًا.

كنتُ أسمع وقع الخطوات في الممر ،وأسمع معها وقع ألمانيا وهي تسقط في قبضة رجل واحد.

صار هتلر ألمانيا.

صار الجغرافيا ، والذاكرة ، والمستقبل.

+

حاولتُ الانتحار. لم أكن أبحث عن الموت ، كنتُ أبحث عن مخرجٍ من المعنى.

لأول مرة سمعني الحراس أصرخ عاليًا ، صرخة لم تكن اعترافًا ولا إنكارًا ، بل اعترافًا من نوع آخر:

أردتُ أن آخذ من سلطات الحزب النازي ، فأخذتُ بيدي إلى السلطة المطلقة!

ساد الصمت .حتى الجدران بدت مرتبكة.

هل فهموا؟

أم أن الصرخة، كالنار، تضيء فقط لمن يريد أن يرى؟

+

أُعدم فان دير لومه . بهدوءٍ إداري.

كأن الدولة كانت تغلق ملفًا ، لا حياة.

لم يُعدم السؤال . لم تُعدم الشكوك .لم تُعدم النار.

تركتُ الحقيقة للمصادفات التاريخية . للمؤرخين الذين سيختلفون ، للأجيال التي ستسأل:

هل كان رجلًا مجنونًا ؟ أم شاهدًا أُحرق مع الدليل ؟

ربما ستجود علينا الأيام بإجابة صحيحة .

وربما ، سيظل رماد الرايخستاغ يهمس كلما حاول أحدهم أن يكتب التاريخ بالحبر فقط ، وينسى أن بعض الصفحات لا تُكتب إلا بالنار. و في أحيان كثيرة بالدم .

فردا كنت ، أم ضمير شعب .. المهم ان طاغية يقفز ، و يستولى على جميع السلطات .